صوم رمضان اشتراكية روحية

إن الاشتراكية المادية التي ندعو إليها ونعمل لها ونعيش فيها لا يمكن أن تقوم ولا أن تدوم إلا على ركن شديد من الاشتراكية الروحية. ذلك أن الروح هو سر الله في كل حي وفي كل نظام وفي كل مجتمع. به يحيا الهامد ويتسق النافر ويجتمع المتفرق. هو الذي نسميه حبًا أو جاذبية أو وحدة. وهو الذي يجمع قلوب المواطنين على عبادة إله واحد، وحب وطن مشترك، وتقديس شعار متحد، وطاعة زعيم قائد. فإذا ضعف في النفوس هذا الروح، واحتجب عن الأذهان هذا السر، تناكرت المعارف وتدابرت الإخوة، فلا يتشاركون في خير، ولا يتعاونون على بر، ولا يتناصرون في شدة، وإذن تصبح القوانين الاشتراكية والأنظمة التعاونية كلامًا لا معنى له وعملاً لا رجع منه.

إن المجتمع الإنساني إذا خلا من هذا الروح الإلهي أصبح مجتمعًا حيوانيًا لا يعطف الفرد فيه إلا على وليده مدفوعًا بغريزة حفظ النوع. فإذا بلغ الوليد أشده واستوي تقطعت الرحم وتباعدت القرابة وانقلب الولد نداً لأبويه يدافعهما عن نفسه، ويصارعهما على قوته، وصار الاشتراك أو الإيثار الذي انبثق من الأمومة والأبوة فردية باغية وأثرة شديدة.

على أن هذه الغريزة تتهذب في بعض أمم الحيوان كالنحل والنمل فتنمو وتسمو وتدوم حتى تصبح اشتراكية مثالية تنتظم فضائل المجتمع الإنساني المرجو، من فناء المفرد في الجمع، وجهاد الكل للكل، وما يحقق ذلك من تضامن وتعاون وإخلاص وإيثار وتضحية حتى بلغ من سمو الاشتراكية في هاتين الأمتين أن النحلة أو النملة تعمل لنوعها كله لا لنفس دون نفس، ولا لطائفة دون طائفة.

وهذا السمو الاجتماعي فيها لا تجد له نظيراً في مجامع الذباب والقرود والناس. فلكل فرد من أفراد الإنسان وهو أرقاها شأنه الذي يغنيه، ورزقه الذي يكفيه. فإن فضل شيء منه عن حاجته فلزوجه وبنيه.

أما علاقته بغيره وغير أهله فهي علاقة الصائد الخاتل أو اللص القاتل، يحتال ويغتال ويغتصب ويستأثر، ولا يبالي أن يهلك العالم وتخرب الدنيا ما دام بدنه معاقي وداره عامرة.

هذا السمو في الاشتراكية المادة لم يجعله الله أصلا في جبلة الإنسان (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) وإنما جعله في الشرع الذي أوحاه وفي الكتاب الذي أنزله. فمن يرد إصلاح الفاسد من حال المجتمع دون أن يبث في أعضائه هذا الروح، وينشر في جوانبه هذا النور، أخطأ الطِّباب الناجع لهذه العلة، وضل السبيل الجامع لهذه الغاية.

إن دين الله اشتراكي بحكم طبيعته ومقتضى رسالته. شرعه الله نظاماً للدنيا وسلاماً للناس على أساس من علمه وتقدير من فضله ومنهاج من هداه، فالملك ملكه، والمال ماله، والفقراء عياله، والأغنياء عباده، والمصير كله إليه.

على هذا الاتصال الروحي بين الخالق والمخلوق اجتمع الشمل في الأسرة الإسلامية الكبرى فكان الناس فيها سواسية، والحكم شوري، والإيمان أخوة، والرزق شركة، والجماعة وحدة. وإذا تدبرت الأركان التي بني عليها الدين والأركان التي جاء بها الشرع. تجلت لك من مطاويها ومراميها تلك الاشتراكية التي تؤلف القلوب بألفة الروح، وتجمع الشعوب بجمعة الحب، وتفرض على الواجد معونة الفاقد، وتوجب على الجميع نصرة الواحد، وتجعل من المسلمين جميعاً جسما واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى كما قال الرسول الأعظم.

خذ مثالا واحداً من ألف: صوم رمضان. أليس هذا الشهر المبارك مظهر الاشتراك الروحي بن المسلمين في جميع أقطار الأرض؟ يصومون في وقت واحد، ويفطرون في وقتت واحد، ويكادون يتفقون على طعام واحد، ثم ينصرفون عن اللذات الحسية والنفسية، ليتجهوا بالتأمل والتعبد والخشوع إلى الله، فيغضوا أبصارهم عن المنكر، ويكفوا ألسنتهم عن الفحش، ويصمّوا آذانهم عن اللغو، ويغلوا أيديهم عن الأذى، ويصدوا أهواءهم عن السوء، ثم يسمتون جميعاً صائمون ومفطروهم سمت الصالحين، فيمسكون السبحة، ويتقون الشبهة، ويصنعون المعروف، ويتقلدون تقاليد رمضان،

فيهجر السكير الكأس، ويترك المقامر الورق، ويؤجل الشرير الشر، وينسى المجرم الجريمة، ثم يشركون المساكين في طعامهم تكافلا ورحمة ن ويؤتون الفقراء من أموالهم تعاطفاً وصدقة، ويولمون الولائم لإخوانهم تواصلا ومودة، ويشعرون أن أجسادهم المتفرقة المختلفة يسري فيها روح واحد يصدر عنه هذا الوجود المتحد وهذا الشعور المشترك.

هذه الروح الإلهي إنما أبقاه وقواه في نفوس الصائمين عقيدة ووراثة وسنة ولو أنه وجد في الوطنية ما وجد في العقيدة من الإيمان، وفي النشأة ما وجد في الوراثة من العمق، وفي القدوة ما وجد في السنة من الصلاح، لشاع في نفوس المسلمين وجعل منهم مواطنين اشتراكيين يعمل كل امرئ منهم لوطنه كما يعمل لبيئته، ويحب لمواطنه ما يحب لنفسه، ويكون لدولته كما يكون الإنجليزي لإمبراطوريته، يخلص لها إخلاصه لعقيدته، ويبر بها بره بأمه، ويفني فيها فناءه في أسرته. ويومئذ ترى المصري أو العربي كما ترى الإنجليزي، يقذف بنفسه في المطرح البعيد والمنزل النابي، ليعمل لقومه، أو ليكدح لنفسه، فلا يضع أمام عينه ولا طي صدره إلا جمهوريته: يمثلها أحسن تمثيل، ويخدمها أخلص خدمة، ويدعو إليها أصدق دعوة. يدعو إليها بفعله قبل قوله، وبقلبه قبل لسانه، وبخلقه قبل علمه. ويومئذ لا تعود ترى أو تسمع أن المصري أو العربي يعيش في الغربة مقطوع الأسباب عن بلده وقومه، لا يعرض من وطنه على الناس إلا صورة الباطل، ولا يتكلم عن أخيه في الغيب إلا كلمة السوء. ذلك لأن الروح الوطني الاشتراكي الذي يستمد سناءه وسناه من روح الله إذا سرى في نفس ابن آدم جعل فرديته قومية، وأنانيته غيرية، وعصبيته إنسانية، وخاصته من الخير لله وفي الله عامَّة.